
الدكتورة مهين حاجي زاده و الدكتورة رقيه صادقي نيري

جامعة آذربيجان لإعداد المعلمين - تبريز - ايران

الملخص :

النظم هو البوتقة التي تنصهر فيها الكلمات المفردة، و تنداخل معانيها حتى تصير معنى واحدا لا عدة معان. كما أنه المحور الأساس الذي تدور حوله البلاغة؛ لأن الكلام وحدة شاملة يستند بعضه بعضاً، فلو أزلت لفظاً عن مكانه لهُوى البناء من القمة إلى القاعدة. و لما كان لعبد القاهر الجرجاني فضل في إبراز و توثيق قضية النظم نسب إليه؛ لأنه أكملها و أحسن عرضها و تحقيقها و تحليلها و استقراء أمثلتها، و إزالة ما يعرض لها من شبهات، و محاولة تطبيقها في ميدان الدراسة الخاصة. فعلى الرغم من أن عبد القاهر انتفع بآراء العلماء السابقين إلا أنه ارتفع بشأن نظرية النظم، و جعلها المحور الأساس الذي تدور حوله فنون البلاغة، حيث بلغت عنده من الترابط و الشمول ما يجعلها تتسع لهذه الفنون. كما أنه ربط بين اللفظ و المعنى، و جعل الصورة الحادثة منهما، التي يعرض بها المعنى هي مجال التفاضل بين صناع الأدب، كما أصبح أى تغيير في نظم الكلام يعد تغييراً بالضرورة في المعنى المصور. إذن عبد القاهر الجرجاني يضع منهجاً للفكر البلاغي بعامة و الفكر اللغوي بخاصة من خلال نظرية النظم. وقد اهتم بجانبى الصحة الداخلية (البنية أو الصرف والعلاقات والتراكيب)، والصحة الخارجية (المقام أو الحال)، ولا يخفى أن اللغة ظاهرة اجتماعية، تتحدد دلالة ألفاظها من خلال السياق وملابساته. وقد ألح الجرجاني في نظريته هذه على

المواءمة بين الاستقامة النحوية والصحة الدلالية، وذلك من خلال كشف فاعلية النحو في توضيح النص وتفسيره واستخراج طاقاته من جهة، وإتاحة أكبر قدر ممكن لتفسير المبادئ الدلالية معتمداً على القواعد النحوية الضابطة للنظام اللغوي. ويلتقي عبدالقاهر بمنهجه الفريد وفكره المستنير مع المفكرين الغربيين، ولوحاته اللغوية الرائعة رغم اتساع بساط الزمن بينه وبينهم في بعض القضايا. يحاول هذا المقال أن يلقي الضوء على فحوى وقوام نظرية النظم عند الجرجاني وما يدور حولها من نزاع، وهو ما سيوضح من خلال البحث.

الكلمات الرئيسية: علم البلاغة، نظرية النظم، عبد القاهر الجرجاني، معاني النحو، المقام.

1- المقدمة

البحث في تاريخ البلاغة العربية يقف موقفاً متأنياً حينما يصل إلى عبدالقاهر الجرجاني وجهوده المتميزة في تطوير البحث البلاغي منهجاً ومادة وأسلوباً. ولعل بلاغياً أو لغوياً كعبدالقاهر لم يتبوأ كالذي تبوأه، ولم يحظ بعناية الباحثين والدارسين كما حظي به.

يعد القاضي عبد القاهر الجرجاني (توفي سنة 471 هجرية) مؤسس علم المعاني وأحد أهم مؤسسي علم البلاغة. وهماو ذا في بداية كتابه "دلائل الإعجاز" يحدثنا عن طبيعة هذا العلم وفوائده فيقول: «لا بد لكل كلام تستحسنه، ولفظ تستجيده، من أن يكون لاستحسنائك ذلك جهة معلومة، وعلة معقولة، وأن يكون لنا إلى العبارة عن ذاك سبيل، وعلى صحة ما ادعيناه من ذلك دليل، وهو باب من العلم، إذا أنت فتحتة اطلعت منه على فوائد جلية، ومعان شريفة، ورأيت له أثراً في الدين عظيماً، وفائدة جسيمة، ووجدته سبباً إلى حسم كثير من الفساد في ما يعود إلى التزليل، وإصلاح أنواع من الخلل في ما يتعلق بالتأويل» (الجرجاني، 1984: 34) ونرى بوضوح في هذا النص أن عبد القاهر يريد أن ينقل البلاغة من مرحلة الأحكام الانطباعية غير المعللة وغير المصنفة إلى علم ذي نظرية متماسكة. وقد قام بهذه المهمة مسلحاً ببصيرة نافذة وفهم دقيق للغة والأساليب وحساسية جمالية عالية وشغف شديد بالبحث.

ولعل عبد القاهر الجرجاني قد أدرك الغاية الكبرى من اللغة ونظامها؛ فيما تبناه في (نظرية النظم) التي اشتهر بها في كتابه (دلائل الإعجاز)، ما يفيد بأن أهدافها ووظائفها لا تستبين إلا في أوضاعها الدقيقة التي بُنيت عليها في تناسق الدلالة وتلاقي المعاني على الوجه الذي يرتضيه العقل من أجل الاتصال والتفاهم والتعبير (الجرجاني، 1984: 143). إذن هذا الكتاب (دلائل الإعجاز) وهو وجهة هذا البحث ومرشده، كتاب في توضيح النظم وتبنيانه، وتحديد كل أركانه فالبحث قائم على هذا الكتاب فنجد أن الكتاب مقسم إلى سبعة أبواب رئيسة، وكل باب يحتوي على عدة نقاط، بيد أن كل هذه النقاط تدور حول منحنى واحد وهو النظم.

الكتاب قد أُلف من أجل بيان وجه الإعجاز في القرآن، إذاً فمادته الأولى هي القرآن، ثم إنَّ عبد القاهر اعتمد على عالمين جليلين؛ وهما: سيبويه والجاحظ، فهو لم ينتفع بهما في الجزئيات فحسب، وإنما دخلاً عنده في صلب مادته التي ابتدأها واستخرجها، فقد ذكر الجرجاني أنَّ الخليل وسيبويه بلغا في فقه النحو مبلغاً لم يسبقهم إليه أحد، ولم يلحقهما فيه أحد، وأهما ذروة هذا العلم، ثم ذكر أنَّ الجاحظ بلغ في بابيه - أي: علم الشعر ومعرفة جوهره وطابعه ومعدنه - مبلغ الشيخين في علم النحو، وتفرد الجاحظ في علم الشعر كتفرد الشيخين في علم معاني النحو (أبو موسى، 1998: 50)

فالنظم أساسه المعنى، و تتفاضل الألفاظ بقدر دلالتها على المعاني. إلا أن المحقق في كلام عبد القادر سواء في النظم أو غيره يتبين له أنه أعطى للفظ قدراً كبيراً من الأهمية أكثر بكثير مما أعطته المدرسة اللفظية للمعنى، و لذلك يمكن القول بأن عبد القاهر من أنصار المدرسة المعنوية في تاريخ النقد و البلاغة العربية مع عنايته الخاصة باللفظ، بل هو الذي وضع أساساً ثابتة لهذه المدرسة و طور مفاهيمها التي تبلورت في نظرية النظم.

وفصل عبد القاهر الكلام على النظم و بين مفهومه، و شرح مقاصده و استعان بأمثلة كثيرة حللها تحليلاً دقيقاً، و خرج من ذلك كله بنظرة جديدة حتى عُدَّ النظم على يديه شبه نظرية متماسكة الأجزاء. و نحن نحاول في هذا البحث أن نتجزأ بقليل مما ذكره لإبراز

مكانة دراساته في التراث اللغوي العربي و كشف أبعاد نظرية النظم و أثرها في التحليلات اللغوية عند المعاصرين و خاصة عند باحثين غربيين.

2- موجز عن حياة عبد القاهر الجرجاني

هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد، فارسي الأصل، جرجاني الدار، متكلم على مذهب الأشعري، فقيه على مذهب الشافعي، وُلِدَ بجرجان ولم يرحها حتى لطلب العلم، ولما طافت شهرته الآفاق شُدَّت إليه الرِّحالُ وحُتَّت المَطِيُّ، وظلَّ متصدِّراً جرجان يُفِيدُ الراحِلين إليه والوافدين عليها إلى أن تُوفِّي بجرجان ودُفِنَ بها سنة 741 هـ (البدرأوى، 1974: 3)

أخذ العلم عن أبي الحسين محمد الفارسي ابن أخت الشيخ أبي علي الفارسي كما أخذ الأدب على يد القاضي الجرجاني وقرأ كتابه الوساطة بين المتنبئ وخصومه. وإلى ذلك يشير ياقوت فيقول: «وكان الشيخ عبد القاهر الجرجاني قد قرأ عليه واغترف من بحره، وكان إذا ذكره في كتبه تبيخ به، وشمخ بأنفه بالانتماء إليه» (حموي، 1993: 16/14). تتلمذ عبد القاهر على آثار الشيوخ والعلماء الذين أنجبتهم العربية، فنحن نراه في كتبه ينقل عن سيبويه والجاحظ وأبي علي الفارسي وابن قتيبة وقدامة بن جعفر والآمدي والقاضي الجرجاني وأبي هلال العسكري وأبي أحمد العسكري وعبد الرحمن بن عيسى المهداني والمرزباني والزجاج. وآثاره تُشِيرُ بأنَّه قد أحاط علماً بما صنَّفه السابقون عليه في علوم الدين والفلسفة والكلام والأدب واللغة، وأدلى بدلوه فيما عرَّضوا له من قضايا ومشاكل، بالإضافة إلى ما حُفِظَ وُجِّعَ له من شعره.

اشتهر عبد القاهر بسعة الصدر، وطول النفس في مناقشة معاصريه؛ ممَّا يُثَبِّتُ خلافَ ما يرى البعض، وكذلك في استطراداته في مصنفاته التقليدية، وفي استقصاءاته في نظريته التجديدية، يُضاف إلى ذلك ما يُفْهَمُ ممَّا قاله صراحةً من ولائه للعلم، وبقائه على عهده، فهو الصديق الذي لا يدخل في الوُدِّ، والصاحب الذي لا يصحُّ عليه النكت والعذر.

وأنّه على الرغم من ضيقه بعصره وأخلاق مُعاصريه، إلا أنّه انصَرَفَ إلى العلم حبّاً فيه وإخلاصاً ووفاء، وكان تأثره بأستاذه ابن أخت أبي عليّ الفارسي شديداً، وانتقل منه إعجابه بخاله ومُصنّفاته؛ فوعاها وترسّم خطّاها على نحو ما كانت منه. تتلمذ على يديه جِلّة من العلماء؛ مثل: علي بن زيد الفصيح، وهو من أشهر تلامذته، قيل عنه: إنّهُ النحوي الحاذق بما أخذ عن عبد القاهر، وأبو النصر أحمد بن محمد الشجري، وهو من العلماء المبرزين في اللغة والنحو بعامة.

ترك عبد لقاهر الجرجاني آثاراً مهمة في الشعر والأدب والنحو وعلوم القرآن، من ذلك ديوان في الشعر وكتب عدة في النحو والصرف نذكر منها كتاب "الإيضاح في النحو" وكتاب "الحمل"، أما في الأدب وعلوم القرآن فكان له: "إعجاز القرآن" و"الرسالة الشافية في الإعجاز" و"دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" وقد أورد في كتابيه الأخيرين، معظم آرائه في علوم البلاغة العربية.

وللجرجاني كتب أخرى؛ مثل: التلخيص، العوامل المائة في النحو، العمدة في التصريف، كتاب العروض، المختار، والتكملة، المقتصد، المغني. (البدراوى، 1974: 14)

3- العلاقة بين علم الدلالة والبلاغة

علم الدلالة هو الفرع الذي يدرس علاقة الرموز بالأشياء التي تنطبق عليها" (مختار عمر، 1982: 11)، ونوع الدلالة الذي يدخل في الدراسة اللغوية هو المعنى التوزيعي؛ أي: التحديد الذي تُضيفه الكلمة المصاحبة في سياقٍ ما على كلمةٍ معيّنة من جهة، ومجموع ما تُضيفه الكلمات من خلال السياقات التي تظهر فيها هذه الكلمات من جهةٍ أخرى؛ مثل: كلمة "الساعة" في السياقات الآتية: • قوله - تعالى -: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ﴾ (القمر/1) • دَقَّتْ ساعة الجامعة. • كم الساعة معك؟

والبلاغة هي «إصابة المعنى والقصد إلى الحجّة مع الإيجاز» (جاحظ، د.ت: 151/1) أو هي: إيضاح المعنى وتحسين اللفظ، أو هي: تصحيح الأقسام واختيار الكلام، أو هي مُطابَقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته.

استغلّ البلاغيّون هذه المعايير للبلاغة وربطوا بين اللفظ والمعنى، وهذه هي نظرية النظم عينها عند عبد القاهر الجرجاني، بيد أنّه قد أوّلَى المعنى مَرِيَّةً عن اللفظ، فقد استخدَم البلاغيّون الألفاظ في التراكيب لتعبّر عن المعنى في نفس المتكلم، ليحدث تأثيراً في نفس السامع.

وهذا الهدف الذي قصد إليه البلاغيّون يتفق مع النظرية التصوّرية العقليّة mentalistic image ideafional، التي تعتبر اللغة وسيلة أو أداة لتوصيل الأفكار، أو تمثيلاً خارجياً أو معنوياً لحالة داخلية.

وهذه النظرية تقتضي بالنسبة لكلّ تعبير لغوي، أو كلّ معنى متميز للتعبير اللغوي - أن يملك فكرة، وهذه الفكرة يجب أن:

- تكون حاضرة في ذهن المتكلم.
- ينتج المتكلم التعبير الذي يجعل الجمهور يدرك أنّ الفكرة المعيّنة موجودة في عقله في ذلك الوقت.
- يكون التعبير قادراً على استدعاء الفكرة في عقل السامع "الوظيفة الفكرية Ideational".
- فهذه النظرية تتفق وحرص علماء البلاغة من خلال تعريفاتهم على ربط اللغة بالفكر، مع تحقيق ما يسعون إليه دائماً؛ وهو تحقيق البلاغة من أقرب طريق من خلال التراكيب "اللفظ والمعنى"، والعلاقة الوشيحة التي بين هذه التراكيب، وهو ما سُمّي بنظرية "النظم".

4- فكرة النظم وتطورها

يدور المعنى اللغوي لكلمة النظم حول معاني الجمع والضم والاتساق والنظام والتأليف. قال ابن منظور: «النظم: التأليف، نظمته نظماً ونظاماً ونظمته فانتظم وتنظم، ونظمت اللؤلؤ أي جمعته في السلك والتنظيم مثله ومنه نظمت الشعر ونظمته، ونظم الأمر علي المثل، وكل شيء قرنته بآخر أو ضمت بعضه إلى بعض قد نظمته، 000، والانتظام والاتساق» (ابن منظور، 1988: 4469/6) والنظم عند الفيروز آبادي: «هو التأليف، وضم شيء إلى شيء آخر، ونظم اللؤلؤ ينظمه نظماً ونظاماً ونظمه: ألفه وجمعه في سلك فانتظم...» (الفيروز آبادي، 1987: 1500)

فالمعنى اللغوي المشترك هو ضم الشيء إلى الشيء، وتنسيقه على نسق واحد، كما تضم حبات اللؤلؤ بعضها إلى بعض ونحوه. وهذا هو الفلك الذي دار فيه المعنى الاصطلاحي للكلمة، فقد دارت كلمة النظم بمفهوم إصطلاحي عند المتكلمين في حديثهم عن الإعجاز القرآن وأصبحت نظرية كاملة عند القاضى الجرجاني والزحشرى وأساسها المعنى اللغوي الذي هو ضم الشيء إلى الشيء وتناسقه.

لقد قطع النظم قبل عبد القاهر الجرجاني شوطاً كبيراً حيث كان شائعاً منذ القرن الثاني الهجري، و متداولاً بين العلماء: أما في تناولهم القصد من النحو، وأنه ليس مقصوراً على حركات الإعراب، بل يتعداه إلى تأليف الكلمات و ارتباط الجمل، وإما في تناولهم قضية اللفظ و المعنى التي يتوصل إلى إعجاز القرآن الكريم.

وسنذكر رأي العلماء الذين اهتموا بالنظم سواء أكان ذلك بالإشارة إليه أم بالتصريح والدراسة، و من هؤلاء العلماء:

بشر بن المعتمر (ت210هـ) الذي اهتم بالتنسيق بين كلمات العبارة، و أن تقع كل لفظة في موقعها الذي يناسبها، و هذا يشير إلى نظم الكلام (غريب علام، 1997: 5)

وكذلك العتاي(ت 213 هـ) حيث يرى أن الألفاظ للمعاني بمثابة الأجماد للأرواح، فينبغي أن توضع في موضعها، وإلا فسات الصورة، و تغيرت المعنى، و فقدت الحسن والجمال وساء نظمها و شان خلقها(ن.م: 5)

ولاشك أن الجاحظ(ت 255هـ) قد عرف معنى النظم، وأشار إليه في كتاباته فهو كما يقول شوقي ضيف مؤسس البلاغة العربية . فلاريب أن إحساس الجاحظ العميق بروعة النظم وما يكسبه الكلام من الرونق والحيوية جعله يؤمن أن إعجاز القرآن في نظمه ، ويؤلف في ذلك كتابه المفقود (نظم القرآن) الذى يشير إليه في كتاب (الحيوان)

والنظم عند الجاحظ فكرة لفظية تعقد على حسن الصياغة وكمال التراكيب ، ودقة تأليف اللفظ وجمال نظمه ، واداة شغفة بجودة اللفظ وحسنه أن قدمه على المعنى حيث يقول :« المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمى والعربى والبدوى والقروى، وإنما الشأن فى إقامة الوزن وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء وفى صحة الطبع وجودة السبك، وإنما الشعر صياغة وضرب من التصوير .» (جاحظ، البيان والتبيين 1/111)

ولاشك أننا نجد إشارات إلى فكرة النظم عند ابن قتيبة(ت 276هـ)، فقد كان ذا مهارة لغوية ، فاستهل كتاب تأويل القرآن بوصف رائع لكتاب الله عز وجل ، وصريحا فيه أن إعجاز القرآن فى نظمه وتأليفه ، وإنه بمعنى سبك الألفاظ وضم بعضها إلى بعض فى تأليف دقيق بينها وبين المعانى... ويشتمل النظم عنده حسن النغم ، ودقة التوقع الداخلى ، وهو الذى ينجم من تأليف الحروف فى النغم كما ينجم عن الفاصلة وأطرافها . (سلام ، 1952: 105). فلا ريب أن ابن قتيبة خطأ بفكرة النظم خطوة أكثر تقدما من الجاحظ إذ طبقها على فنون البلاغة المختلفة ، ليكون حلقة فى سلسلة تطورها.

و أما الرماني(ت 356هـ) فقد أشار إلى النظم، و فهم ذلك منه عندما تحدث عن التلاؤم، فانه يقصد به حسن النظم، و جودة السبك حتى يحلو فى السمع، ويخف على اللسان(غريب علام، 1997: 6)

أما الخطابي(ت 388هـ) فإنه يرى أن النظم القرآني من النظم العالي الذي لا يصل إليه نظم آخر، حيث اشتمل على الأمور الثلاثة التي يقوم عليها الكلام من اللفظ الحامل، والمعنى القائم، و الرباط الناظم، و كان منها في غاية الشرف و الفضيلة(خطابي، 1976: 36)

وقد جعل الباقلاني(ت 403هـ) الوجه الثالث من وجوه الإعجاز القرآني في بديع نظمه وتناهيه في البلاغة، ويعرض وجوه الإعجاز المتضمنة في بديع نظمه والتي منها : «مايرجع إلى الجملة، وذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه وتباين مذهبيه - خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم- ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به، ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد وهذه خصوصية ترجع إلى جملة القرآن .» (الباقلاني، 1981: 35)

ولاشك أن الباقلاني متأثر في هذا -نظم القرآن خارج عن المؤلف - بالجاحظ الذي ذهب أن مرجع الإعجاز في القرآن «يعود إلى نظمه وتأليفه العجيب المبين لساليب العرب في الشعر والنثر .»(جاحظ، د.ت: 383/1)) وهذا ما أشار إليه شوقي ضيف في كتابه البلاغة تطور وتاريخ، والباقلاني يعنى بالنظم طريقة الكلام وأسلوبه، فهو مقابل للشعر والسجع والكلام المرسل، وهو يختلف عن مفهوم النظم عند الجرجاني.

إن الباقلاني لم يضع تعريفا جامعاً لمعنى النظم، وإنما شرح خصائص النظم القرآني، وما يتميز به كلام الناس، وبعد هذه الصفات قد تكرر عنده، وبعضها يحمل طابعاً منفرداً في أسلوب القرآن وحده، وخصائص النظم انظر كتابه (الباقلاني، 1981: 47). وقد تناول النظم كظاهرة كلية في القرآن كله ، فسبق بذلك المفكرين في العصر الحديث الذين يتناولون في نقدهم العمل الأدبي بوجه عام ، لأن هذه الأوصاف التي ذكرها لفكرة النظم مستنبطة من القرآن كله كوحدة متكاملة الحلقات متصلة الجوانب ، فهي شائعة فيه مثبتة في تضاعيفه تراها في السورة الواحدة والسور المتعددة.

وقد ذكر الباقلاني « أن القرآن أعلى منازل البيان، وأعلى مراتبه ما جمع وجوه الحسن وأسبابه وطرقه وأبوابه، من تعديل النظم وسلامته، وحسنه وبهجته وحسن موقعه في السمع، وسهولته على اللسان، ووقوعه في النفس موقع القبول...» (ن.م: 276-277) فلاشك أن هذه الفكرة هي التي أدار حولها الخطابي حديثه في رسالته وهي فكرة التأثير النفسي. ومن العلماء البارزين الذين اهتموا بالنظم، و كان تأثير واضح في الامام عبد القاهر الجرجاني: القاضي أبو الحسن عبد الجبار الأسدآبادي (ت 418هـ) الذي تناول النظم بشيء من الدقة و التفصيل، حيث يقول: «إعلم أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام، وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة، و لا بد مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة» (القاضي عبد الجبار، 1960: 16/199). فعبد الجبار يوضح النظم بالتشام الكلمات بعضها مع بعض، و مراعاة الإعراب و الحركات و الموقع، و يجعل النحو ركناً مهماً في النظم حتى تتحقق له البلاغة. و على هذا يكون القاضي عبد الجبار وضع الأساس الذي بنى عليه عبد القاهر فكرته في النظم.

فعلى الرغم من أن عبد القاهر انتفع بآراء العلماء السابقين إلا أنه ارتفع بشأن نظرية النظم، و جعلها المحور الأساس الذي تدور حوله فنون البلاغة، حيث بلغت عنده من الترابط و الشمول ما يجعلها تتسع لهذه الفنون.

5- النظم عند عبد القاهر الجرجاني

عبد القاهر الجرجاني لم يبتكر نظرية النظم بمعنى أنه أنشأها من العدم، و لكنها تنسب إليه بفضل تطبيقها على كثير من أبواب البلاغة التي تدخل في علم المعاني، أو البيان، أو البديع، و لم يكن يكتفي بتلك الإشارات العابرة الدالة على قصد النظم كما فعل السابقون، ولكنه جعل من هذه الإشارات نظرية بلاغية كبرى احتوت البلاغة كلها حتى أصبحت تصب في النظم، و لا تخرج عنه، و لا ينبغي أن تدرس منفصلة عنه.

ومفهوم النظم عند عبدالقاهر يوضّحه بقوله: « اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوَضْع الذي يقتضيه (علم النحو)، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رُسِمَتْ لك، فلا تخل بشيءٍ منها» (جرجاني، 1984: 81)

و بعد قراءة كتاب الدلائل و إمعان النظر فيه يتضح أن الكتاب يقوم على دعامة من النحو و النظم؛ ففي المدخل يقول: هذا كلام وجيز يطلع به الناظر على أصول النحو جملة، و على ما به يكون النظم دفعة. و أن عبد القاهر لا يفرق بين توحي معاني النحو وأحكامه و النظم بل يجعل منهما كلمتين مترادفتين لشيء واحد.

حيث يقول في نهاية الكتاب: « فليس النظم إلا توحي معاني النحو و أحكامه ووجوهه و فروقه فيما بين معاني الكلم، و أنك قد تبينت أنه إذا رفع معاني النحو وأحكامه مما بين الكلم حتى لا تراد فيها في جملة و لا تفصيل خرجت الكلم المنطوق ببعضها في إثر بعض في البيت من الشعر، و الفصل من النثر عن أن يكون لكونها في مواضعها التي وضعت فيها موجب و مقتض، و عن أن يتصور أن يقال في كلمة منها إنها مرتبطة بصاحبة لها، و متعلقة بها، و كائنة بسبب منها»(ن.م: 333)

و بين المدخل و النهاية نصوص غزيرة تؤكد المعنى الذي يريد عبدالقاهر إثباته من أن النظم في جوهره هو النحو في أحكامه، لا من حيث الصحة و الفساد فحسب، بل من حيث المزية والفضل. لذلك يقول: « فلست بواجد شيئاً يرجع صوابه إن كان صواباً وخطؤه إن كان خطأ إلى النظم، ويدخل تحت هذا الاسم إلا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه و وضع في حقه، أو عوامل بخلاف هذه المعاملة، فأزِيل عن موضعه، و استعمل في غير ما ينبغي له، فلا ترى كلاماً قد وصف بصحة نظم أو فساده، أو وصف بمزية و فضل فيه، إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة، و ذلك الفساد، و تلك المزية، و ذلك

الفضل إلى معاني النحو و أحكامه، و وجدته يدخل في أصل من أصوله، و يتصل بباب من أبوابه»(ن.م: 56)

فالنظم يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالنحو، و ليس المقصود بارتباط النظم بالنحو أم يخضع لتلك القواعد الجافة الشكلية من الرفع و النصب و الجر و الجزم، و تقديم الفعل على المفعول و تأخير الخبر عن المبتدأ و تقديمه عليه. فعبداً القاهر لا يقصد هذا، ولكنه يقصد إلى النحو البلاغي، أو البلاغة النحوية، و بذلك يكون أول عالم أخرج النحو من نطاق شكلية و جفافه، و أصبح النظم الذي يرتبط بالنحو أو النحو الذي يعود إليه النظم مباحث في الأسرار البلاغية، و النكتات الفنية التي تدقّ في جاذبيتها و تحلق في تصويرها حتى تصل الى أرفع مراقبي البيان، و ذلك هو الإعجاز الذي أذاب فيه الرجل عصارة أيامه و لياليه.

ومعاني النحو مقسمة بين حركات اللفظ و سكناته، و بين وضع الكلمات في مواضعها المقترضة لها، و بين تأليف الكلام بالتقديم و التأخير و توكي الصواب في ذلك و تجنب الخطأ فيه.

فكان عبداً القاهر ترك القسم الأول من النحو الخاص بالحركات و السكنات، و أرجع البلاغة إلى القسم الثاني الذي يخص وضع الحروف في مواضعها التي تقتضيها، و توكي الصواب في تأليف الكلام. إذن كانت نظرية النظم لدى عبداً القاهر دعوة صارخة الى دراسة النحو على منهاج جديد يقوم على الحس و الذوق و حسن التخيير، بدلاً من المنهاج التقليدي الذي يوجه العناية الى الإعراب، و البيان الأوجه الممكنة من الناحية الإعرابية التي قد تكون على خلاف المعنى المقصود.

ينفي عبد القاهر مبدئياً أن يكون القصد من معاني النحو الإعراب، ذلك أنه «لم يجوز إذا عد الوجه التي تظهر بها المزية أن يعد فيها الإعراب وذلك أن العلم بالإعراب مشترك بين العرب كلهم، وليس هو مما يستنبط بالفكر ويستعان عليه بالرؤية (كذا)، فليس أحدهم

بأن إعراب الفاعل الرفع والمفعول النصب والمضاف إليه الجر بأعلم من غيره، ولا ذاك المفعول به مما يحتاجون فيه إلى حدة ذهن وقوة خاطر. إنما الذي تقع الحاجة فيه إلى ذلك العلم بما يوجب الفاعلية للشيء إذا كان إيجابها من طريق المجاز كقوله تعالى [فما ربحت تجارتهم]، وكقول الفرزدق "سقتها خروق في المسامع"، وأشبه ذلك مما يجعل الشيء فيه فاعلاً على تأويل يدق، ومن طريق تلطف، وليس يكون هذا علماً بالإعراب ولكن بالوصف الموجب للإعراب» (ن.م: 302)، فإذا كانت المزية منتفاة من الأشكال الظاهرية للإعراب وأن معاني النحو ليست هي هذه الأشكال، فإن العلم بالوصف الموجب للإعراب كالفاعلية مثلاً من صميم معاني النحو، وهي من حقول فعل العقل حيث بواسطتها يتم إلحام معاني الكلم بمزجها في مفهوم واحد وفق التلاحم الذي تحدته معاني النحو، باعتباره المفتاح الذي يتم به بناء علم الدلالة المحدثة بينها، ذلك أنه: «قد علم أن الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها، وأن الأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها، وأنه المعيار الذي لا يتبين نقصان كلام ورجحانه حتى يعرض عليه، والمقياس الذي لا يعرف صحيح من سقيم حتى يرجع إليه». (ن.م: 23).

فليست دلالة الإعراب في النص السابق دلالة شكلية، ذلك أنه يتعلق بما تفتيق المعاني والأغراض من الألفاظ، وليست المعاني والأغراض نتاج الألفاظ المفردة، وإنما هي خلاصة التفاعل الحادث بين كلمتين فأكثر بحسب ما تبيحه معاني النحو، وهي أخيراً المعيار المحدد للخطأ والصواب في القول، وبما أن كل نضد للدلالة ضمن سياق معنوي تنتجه كلمات لا يتحقق إلا بتوخي معاني النحو في معاني الكلم، إذ تبلغ بها وحدة المفهوم، ومجانبة الخطأ وتحقيق الصواب رهن التزامها أيضاً، أمكن تحديد معاني النحو وفق هذا التصور بما يعرف حديثاً بالوظائف النحوية (البدراوى، 1974: 184)

وإن خصوصية منهج الجرجاني في نظريته تكمن في تقديم تفسير لغوي موضوعي لوجوه هذه النظم التي بها يتحقق الإعجاز. وقد ألح الجرجاني في نظريته هذه على الموازنة بين الاستقامة النحوية والصحة الدلالية، وذلك من خلال كشف فاعلية النحو في توضيح

النص وتفسيره واستخراج طاقاته من جهة، وإتاحة أكبر قدر ممكن لتفسير المبادئ الدلالية معتمداً على القواعد النحوية الضابطة للنظام اللغوي.

والذي يُميز الجرجاني عن سابقيه أنه قد تجاوز مستوى التنظير الذي وقف عنده سابقوه، وتعداه إلى مستوى التطبيق؛ فقد ردوا جميعاً إعجاز القرآن إلى فصاحته، وهذا يتفقون عليه جميعاً، إلا أن الاختلاف: لأي شيء يُوصف بالبلاغة أو الفصاحة؟ فإن الجرجاني يجعلها في المعاني والألفاظ إلا أن المعاني مقدمة، ويجعلها القاضي عبد الجبار في الألفاظ؛ فيقول عبد الجبار في تفسير معنى الفصاحة: «إنها خصوصية في نظم الكلام وضم بعضها إلى بعض على طريقة مخصوصة، أو على وجه تظهر بها الفائدة» (جرجاني، 1984: 36). ولكن عبد القاهر لا يرى هذا الوجه كافياً لمعرفة وجه الإعجاز، وإن عبد القاهر لم يترك الكلام برؤيته، إلا أنه يرى أن تفسير الفصاحة بأنها خصوصية في نظم الكلام وضم بعضها إلى بعض على طريقة مخصوصة أو على وجه تظهر به الفائدة، بل لا تكون من معرفتها بشيء حتى تفصل القول، وتحصل، وتضع اليد على الخصائص التي تعرض في نظم الكلام، وتعدّها واحدة واحدة، وتسمّعها شيئاً فشيئاً.

إن جوهر نظرية النظم الاعترائية في النظم يكمن فيها أن كون المعاني لا يقع فيها ترايد، وإنما يقع الترايد في الألفاظ التي تُعبّر عنها، وهذا عكس النظرية الأشعرية التي تقول بأن الألفاظ لا يقع فيها ترايد، وإنما يقع الترايد في المعاني التي تدل عليها. وعبد القاهر بذلك يربط بين الصحة الداخلية والصحة الخارجية، فقد تحدّث عن معنى البلاغة، وأن الكلمة لا تُوصف بالحسن، ولا تستولي على هوى النفس، وذلك من وظيفة البلاغة، أو ما تنعت به الكلام الذي شأنه كذلك من لفظ البلاغة.

فإننا لا يروق لنا لفظ ولا نستحسنه، ولا يظهر لنا في حلة جميلة إلا إذا كان مؤدياً لمعناه على أتم وجه، مختاراً له من الألفاظ ما يظهر فيها؛ كي يكشف عنه ويفصح (ن.م: 36) وعندما ننظر في كتاب الجرجاني فيمكن أن نتناوله في نقطتين أساسيتين:

أ- عُنِي فيها بتحديد المكونات الأساسية لنظرية النظم، وهي المكونات التي استُخْلِصت من المقولات والتصورات النظرية التي عرَضَها الجرجاني في نقطتين:

1- قبل التطبيق: حيث مهَّد له في عرض مبدئي.

2- بعد التطبيقات: حيث اتخذت صورة الردود على وجهات النظر المخالفة له، مُدْعَمًا تلك الردود بالأدلة والبراهين المُستخرجة من التطبيقات.

ب- التحليلي، فيقتصر على تحليل بعض نماذج وجوه النظم التي عالَجَها الجرجاني للوقوف على طرقه في التحليل والتفسير، وهو ما قدَّمه في أبواب؛ مثل: التقديم والتأخير، والحذف والذكر، والقصر والاختصاص.

وفي هذه النقطة أُبَيِّن دور المكونات الأساسية؛ مثل: غرض أو قصد المتكلم، والتشكيل اللغوي، والقرائن المقالية والحالية، وفهم المخاطب، وكذا تحديد العلاقة بين القاعدة النحوية وفهم الدلالة، وكيفية وقوع المواءمة بين الاختيار أو القصد والانتلاف. إنَّ عبد القاهر قد نظرَ إلى أقوال العلماء في معنى "الفصاحة، والبلاغة، والبيان، والبراعة"، وتفسيرها والمراد بها، وكان كلامهم كالرمز والإيماء، ولكنَّ الجرجاني يقول: «ووجدتُ المعول على أنَّ هاهنا نظمًا وترتيبًا، وتأليفًا وتركيبًا، وصياغةً وتصويرًا، ونسجًا وتحبيرًا، وأنَّ سبيل هذه المعاني في الكلام الذي هي مجازٌ فيه سبيلها في الأشياء التي هي حقيقة فيها» (ن.م: 43) فإنَّ المفاضلة لا تقع للفظ من حيث هو مفرد قبل دخوله في التركيب على طريقةٍ مخصوصةٍ، فما وجَّه المفاضلة بين كلمة (رجل) وكلمة (فرس) إذ لم يتبيَّن لي موضعها من حيث النظم، يقول عبد القاهر: «وهل يقع في وهم وإنَّ جهد أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ينظر إلى مكانٍ تقع فيه من التأليف والنظم» (ن.م: 44)

فإنَّ الفصاحة لا تتوقَّف على كون هذه الكلمة مألوفةً مستعملةً، وتلك غريبة وحشية، أو أن تكون حروف هذه أخفَّ، ولكن تعتبر فصاحتها بالنظر إلى مكانها في النظم، ومن

مُلاءمة معناها لمعنى جارائها، وفضل مُؤانستها لأخواتها (أبو موسى، 1998: 87). إذ إنّ الكلمة في النظم تُرتَّب وتؤلّف، ففي التركيب وحسن العلاقة والاختيار جمالُ الكلام، فارتباط الكلام بعبءه ببعض من صيغ وصرف، ومُلاءمة معناها للمعنى التي تليها، وإيناسها لأخواتها- لدليل على ترتيب الأفكار، وحسن ما يدور في العقل من معانٍ، فإنّ الألفاظ وعاء المعاني، فيجمل الوعاء ويُستحسن بما يحويه.

وانطلاقاً من تأرجح فكره بين اللفظ والمعنى، فإنّ القارئ لما يقول الإمام في النظم يُرجّح أنّه قد اهتمّ بالمعنى دون اللفظ، إلّا أنّ النصوص أو كلام عبدالقاهر يُوضّح أنّ وجه الإعجاز أو أنّ الفصاحة لا تتمّ إلا إذا تعلّق اللفظ بالمعنى، ولكن من الحكمة أن يُعلي من شأن المعنى أولاً إذا كان يُناظر مذهباً قد جعل المزيّة للفظ دون المعنى، وعبدالقاهر في تنظيره كما سبق يربط بين مرحلتين، أو يُمكن أن نضعها تحت عنوان "علاقة الفكر باللغة"، أو "العلاقة بين الدال والمدلول".

فيقول في تحقيق القول في البلاغة والفصاحة والبيان، والبراعة: «... ممّا يُعبّر به عن فضل بعض القائلين على بعض من حيث نطقوا وتكلّموا، وأخبروا السامعين عن الأغراض والمقاصد، وراموا أن يُعلّموهم ما في نفوسهم، ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم» (جرجاني، 1984: 46)

يُحاول الجرجاني أن يُحلّل عملية الإبداع، فيقسّمها إلى عمليتين:

الأولى: غير لغويّة، نفسية عقلية تدور في الذهن حيث يحدث التلاؤم بين المعنى واللفظ، أو ما يُطلق عليه عملية الانتقاء والاختيار.

الثانية: وهي لغويّة، منطوقة أو بدايتها تُنطق حيث يُوجد التأليف، وهذه المُقابلة بين العملية التي تقع خارج الواقع اللغوي والعملية التي تقع داخل الواقع، وهي جوهر الخلاف بين عبدالقاهر وعبدالجبار.

والجرجاني من خلال نصّه هذا يُبين المكونات الأساسية لفكرة النظم من مرحلة غير لغويّة، وهي مرحلة اختيار المعنى، والمرحلة اللغويّة وهو المنطوق الذي يقع في التّأليف، وهو الوجود الخارجي، يقول: «وهل تجد أحداً يقول: هذه اللفظة فصيحة، إلّا وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسن ملاءمة معناها لمعنى جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها؟» (ن.م: 81) وهو بذلك لا يفصل بين اللفظ والمعنى؛ لأنّ التلاؤم أو المؤانسة أو التناسب أو غير ذلك قد وقع بينهما في العمليّة الذهنيّة الأولى، ولا يمكن أن تنفصل العمليّة الذهنيّة الثانية؛ حيث لا ينفصل الاختيار عن التّأليف، فالنظم إذاً يصل بين اللفظ والمعنى معاً. ثم ينظر الجرجاني لهذا التّأليف كيف يكون حيث يُعجز من سميّعه، ويقرّ بالفصاحة والبلاغة، فيقول: «معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلام بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض» (ن.م: 65)

فبعد القاهرة يمدّ أصابعه إلى عمليّة الإبداع، فنظر إلى ما يعملهُ مُنشئ الكلام، فقد كان كلّاً بمعرفة حقيقة البيان وكُنْهه، وقد وجد عبدالقاهر أنّ هذا لا يكون في ألفاظ؛ لأنّ ألفاظ اللغة مشتركة بين أهل اللغة جميعاً، كلهم يستعمل ما يشاء، وهي ألفاظ تعود إلى مواضعها من رصيد اللغة، الذي يأخذ كلّ لسانٍ منه ما يشاء ليصوغ معانيه، ويدلّ على مراميّه بطريقته هو أبو موسى، (1998:57) إذاً فلا بُدّ أن يكون هناك شيء غير هذه الألفاظ هو الذي يرجع إليها جوهر البيان، وهو الذي يُجمل نفس صاحبه، وبهذه النفس ينسب إليه، ولا شيء هناك بعد الألفاظ إلّا "العلاقات والروابط التي هي بين الكلمات"، كأنها المِلاط الذي يصل الكلمة بالكلمة، ويربط الكلمة بالكلمة، ويُرتّب الكلمة على الكلمة، فتكون هذه خبراً عن تلك، أو وصفاً لها، أو حالاً منها، أو عاملاً فيها أو معمولاً، فإنّ الكلام بناء... ثم يسرد بعد ذلك ما يشعر بترادف النظم مع مفاهيم أخرى مثل: (الترتيب، التّأليف، التنظيم، التركيب، الصياغة، التصوير، النسخ، التعبير... إلخ). وهذا ما يؤكّد الصلة بين مصطلحات الإعجاز، ويظهر أنّ الكلمة الفصيحة وحدها لا اعتبار لها في نفسها، بل تستمد قيمتها البلاغية من حسن موقعها وتنسيقها، وملاءمتها لما قبلها ولما بعدها.

فهذا النظم وتلك الروابط التي تكون فيها الكلمة هي التي تستخرج من ألفاظ اللغة دلالتهما، وهذا هو سرُّ فعلها، وكأنها المفتاح أصبت به مدخلاً لطيفاً للكلمة، وهذه الروابط هي التي تفرغ لنا من الكلمات طعومها وألوانها، وإنَّ لقانة المتكلم وموهبته كل ذلك من المهارة التي تجعله يتخذ من هذه الروابط والعلاقات وسائل ناجحة في الوصول إلى عمق الكلمة؛ حتى يستخرج منها ما لم يستخرجه غيره، ويفتح له باباً من الدلالة لم يفتح من قبله (أبو موسى، 1998: 57).

والجرجاني هنا حين يقول بتعليق الكَلِم بعضها ببعض، وإيناسها لجاراتها، فهو يُشير إلى معاني التركيب الذي تلعب فيه معاني النحو دوراً أساسياً، فلو أنَّ الكلمة إذا حُسُنَتْ حُسُنَتْ من حيث هي لفظ، وإذا استَحَقَّت المزية والشرف استَحَقَّت ذلك في ذاتها وفي انفرادها، دون أن يكون السبب في ذلك حالاً لها مع أخواتها المجاورة لها في النظم، لما اختلف بها الحال، ولكانت إمَّا تحسُن أبداً، أو لا تحسُن أبداً. وربما قد تجاوز الجرجاني هنا مستوى المعاني النحويّة، وهو ما ينتج من تعلُّق الكلم بعضها ببعض، وكذا بناؤه بعضه على بعض - إلى السِّيَاق أو قرائن الحال والمقام.

فالجرجاني قد ميّز بين دلالة الوضع ودلالة السِّيَاق، أو بيان دلالة الكلمة منفردة ودلالاتها في حالة تأليفها، وطبقاً لنظرية النظم فإنَّه يهيمُ الجانب الثاني من الدلالة؛ لأنَّه يريد أن ينفذ إلى الدلالة المباشرة، والتي يعود إليها النظم في جميع أحواله لا إلى الكلمة المفردة؛ لأنَّ الكلمة المفردة التي تراها في المعجم صامتة خرساء، وهي في الحقيقة منطوية على ذخائر الأفكار والخواطر والصُّور التي لا حدود لها، وكلُّ ذلك وأضعافه مذكورٌ فيها، والبراعة إنما هي في استخراجِه وإنطاقه، وإشاعتها بواسطة العلاقات التي نسمِّيها أحياناً سَبْكَاً ورَصْفاً، وهذه العلاقات وهذا السبك وهذا الرصف إنما يكون بينها وبين أخواتها في الجملة (ن.م: 50) فإنَّ لكلِّ مقام مقالاً؛ لأنَّ الكلمة مع كلِّ سبك ورصف مقال جديد؛ أعني: دلالة جديدة، ومعنى جديدًا ومنطقًا جديدًا، (انظر إلى سحبان وكيف وصف بالفصاحة ضد ما قيل عن باقل) (ن.م: 45)

ويؤكد الجرجاني فكرة التمييز بين دلالة الوضع ودلالة السياق السابقة حين يُقابل في نص آخر بين الحروف المنظومة والكلم المنظوم، فيقول: «وذلك أن نظم الحروف هو تواليها في النطق، وليس نظمها بمقتضى عن معنى، ولا الناظم لها بمقتضى في ذلك رسماً من العقل اقتضى أن يتحرى في نظمها ما تحرّاه، فلو أن واضع اللغة كان قد قال "ربض" مكان "ضرب" لما كان في ذلك ما يؤدّي إلى فساد... إلخ» (جرجاني، 1984: 49). يؤكد الجرجاني أن للحروف نظاماً وترتيباً، ولكنه يفقد جانب المعنى كما أن الحروف أو نظمها منطوق، ولكن ليس مرحلة له سابقة ذهنية، وهو ما يُعرف بعشوائية العلامة اللغوية، وهو ما لا يوجد معها ترابطٌ داخلي بين الدال والمدلول. أمّا نظم الكلم فيختلف عن نظم الحروف قبل مرحلة النطق مسبقة بالعملية النفسية، فنظم الكلم تُقتفى فيه آثار المعاني في النفس، فهو إذاً: «نظم يُعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، لا ضم الشيء كيف جاء واتفق» (بحيرى، 1997: 15)

ويُدلل الجرجاني على قوله بأن مدار الأمر في النظم والترابط بين أجزاء الجملة في علاقات وتراكيب، وحيث لاقت الأولى الثانية، والثانية الثالثة، وهكذا، ويأتي بمثال من القرآن وهو قوله - تعالى -: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَفْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (هود/ 44). فإنّ عبدالقاهر يردّ إعجاز هذه الآية وما فيها من المزية الظاهرة والفضيلة الباهرة إلى أمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم ببعضه ببعض، وأنها لم تعرض إلى الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية، والثالثة بالرابعة، وهكذا... فأنت لو تأملت وأخذت لفظة مفردة "ابلعي" من بين أخواتها هل تراها تؤدّي إلى الفصاحة مثلما كانت عليه في الآية؟

ثم إن الكلمة المفردة لا يكون لها معنى من حيث هي لفظ، إذا كانت موضوعة بإزاء الصور الذهنية التي تُدرك من الخارج قبل النطق بها، أو كانت في الذهن فقط كالعلم ونحوه. ويحلل عبدالقاهر تلك الآية، وكيف كانت الكلمات مُنتقاة، كذا معاني النحو واختيار الأدوات، مثل اختيار (يا) دون (أيتها)، واختيار الصيغة التي للبناء لما لم يُسم فاعله

للتفخيم والتعظيم، يقول: "وكيف بالشك في ذلك، ومعلوم أن مبدأ العظمة في أن تُوديت الأرض، ثم أُمرت، ثم في أن كان النداء بـ "يا" دون "أي" نحو: "يا أيتها الأرض"، ثم إضافة الماء إلى الكاف دون أن يقول: "أبلعي الماء"، ثم أن أتبع نداء الأرض، وأمرها بما هو من شأنها نداء السماء، وأمرها كذلك بما يخصها، ثم أن قيل: ﴿وَعِضَ الْمَاءُ﴾ فجاء الفعل على صيغة فعل الدالة على أنه لم يعض إلا بأمر أمر وقُدرة قادر" (جرجاني، 1984: 45)

ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله - تعالى -: ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور، وهو ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ (هود/ 44)، ثم إضمار السفينة قبل الذكر كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن، ثم مُقَابَلَةٌ ﴿وَقِيلَ﴾ في الخاتمة. فهذا هو الإعجاز من النظم؛ حيث ترتبط الكلمة بالتي بعدها أو قبلها حتى تُفَضِّي بالمعنى، وقد قيل من قبل: إنَّ نظم الكلام هو نظم يُعْتَبَرُ فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، لا ضم الشيء كيف جاء وأنفق، وقد ألحَّ الجرجاني على هذا المعنى في النظم حيث جعله نظيراً للتأليف والنسج والصياغة والبناء، والوشي والتجوير، وما أشبه ذلك، ممَّا يُوجِبُ اعتبارَ الأجزاء بعضها مع بعض، حتى يكون الوضع كلُّ حيث وُضِعَ علَّةً تقتضي كونه هناك، وحتى لو وُضِعَ في مكان غيره لم يصلح، فالمقام لَمَّا أن كان مقامَ تمويل وتعظيم استخدم صيغة البناء لما لم يُسَمَّ فاعله، مثلها مثل قوله - تعالى -: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ (التكوير/ 1-2).

فالإمام عرَّض للتركيب والعلاقة بين كلمة وكلمة، وصيغة وصيغة، وكيف تكون هذه الكلمة مُسْتَحْسَنَةً في هذا الموضع وقِلَقَةً نابية في موضع آخر، ثم تحدَّث عن اختيار الصيغة الصرفية، وكيف كان المقام عاملاً في اختيار صيغة معينة، ثم تعريجه على باب التقديم والتأخير، والذكر والحذف، ثم الإقرار والتأكيد، وكيف كان المقام عليه تُنظَّم الكلمات وتأتلف حتى تكون حسنة المظهر جليَّة المعنى بفصاحتها، ثم ترقى لمستوى أعلى وهو بلاغة الكلام.

فنظمُ الكَلِم هو العلاقة بين ما وُضِع في نفس المتكَلِّم من معانٍ، أو بين العلاقات الدلالية والتركيبية، وهو ما يظهر بعد ذلك في عملية النطق. يتبيّن من ذلك أنّ عبدالقاهر قد ألحّ كثيراً في القسم الأول من الكتاب على فكرة المعاني النفسية التي تترتب في الذهن، وهو مستوى ما قبل النطق، وفي القسم الثاني على توالي الألفاظ في مستوى التأليف والعلاقات بينها، واختلاف الدلالات باختلاف الترتيب (أو التوالي أو الضم أو البناء)، «فالكلمة تُروّقي في موضعٍ وتثقل وتوحشي في موضعٍ» (ن.م: 64).

فالغرض من نظم الكلام ما تناسقت دلالاتها وتلاقّت معانيها، لا توالي ألفاظها في النطق على الوجه الذي اقتضاه العقل؛ لذا جعله - أي: النظم - نظيراً للصياغة والتجوير، والتفويف والنقش. يقول عبدالقاهر مؤكّداً ما سبق: «واعلم أنّ ما ترى أنّه لا بدّ منه ترتيب الألفاظ وتواليها على النظم الخاص، ليس هو الذي طلبته بالفكر، ولكنّه شيء يقع بسبب الأوّل ضرورة، من حيث إنّ الألفاظ إذا كانت أوعية للمعاني فإنها لا محالة تتبع المعاني في مواقعها، فإذا وجب لمعنى أن يكون أولاً في النفس، وجب اللفظ الدال عليه أن يكون مثله أولاً في النطق...» (ن.م: 52)

فهذا هو مقصد الجرجاني من قضية النظم، فإنّ تصوّر الألفاظ أن تكون المقصودة قبل المعاني بالنظم والترتيب، وأنّ يكون الفكر في النظم الذي يتوصّفه البلغاء فكراً في نظم الألفاظ، أو أن نحتاج بعد ترتيب المعاني إلى فكر تستأنفه، لأنّ تحييء بالألفاظ على نسقها فباطل من الظن...

ومن النص السابق حيث ربط عبدالقاهر بين العملية النفسية الذهنية، وبين النطق الفعلي للكلام حيث يقع ترتيب الألفاظ حيث تتلاءم الدلالات المعجمية بالدلالات السياقية على مستوى التأليف.

ولكن هناك جانب ثالث وهو (مستوى التفسير)، ويمكن أن يُتصوّر الجانبان أو المستويان السابقان على النحو التالي كما وضّح الدكتور: سعيد بحيري:

عملية نفسية سابقة..... عملية لغوية لاحقة.

تقع خارج اللغة..... تقع داخل اللغة.

دلالات نفسية..... ألفاظ منطوقة.

اختيار الألفاظ الدالة..... تأليف بين الدلالات النحوية.

قصد المتكلم..... والنص اللغوي.

يقول الدكتور سعيد البحيري: "فكما أن قصد المتكلم هو الذي أنتج النص اللغوي، فإن النص اللغوي هو السبيل الوحيد للكشف عن قصد المتكلم، فلم يكن الترتيب إذاً إلا سبيلاً للتصور ومُعِيناً على الإفهام؛ إذ إن تأليف الألفاظ راجعٌ حتماً إلى تأليف الدلالات النحوية الذي يُشكّل صورة واقعية (أو واقعاً مادياً) لتأليف المعاني في النفس«(بحيري، 1997: 184)

ويُلحّ الجرجاني على ضرورة عدم الفصل بينهما، فإنه لا يُتصوّر للفظ موضعٌ من غير أن تعرف معناه، ولا أن تتوخّى في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ترتيباً ونظماً، وأنك تتوخّى الترتيب في المعاني وتُعمل الفكر هناك، فإذا تمّ ذلك أتبعته الألفاظ وقفوت بها آثارها، وأنك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك لم تحتج أن تستأنف فكراً في ترتيب الألفاظ، بل تجدها تترتب تلك بحكم أنها حدّم للمعاني، وتابعة لها ولاحقة بها، وأن العلم بواقع المعاني في النفس علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق.

ويقول الجرجاني: «معنى لطيف، ولفظ شريف»(جرجاني، 1984: 64). ممّا يدلّ على أن المزية والفضل يتقاسمهما اللفظ والمعنى معاً، فليس وصف القلب بمنفصلٍ عن وصف المعاني، سواء قلنا: فصاحة أم نظماً، وهذا يؤكّد أن الجرجاني لم يكن من أنصار المعنى، وأنه أهمل اللفظ في مواضع، وهو الذي قال ذلك ردّاً على من غني باللفظ وحده.

وجوهر نظريته - رحمه الله - أننا لا نستطيع الوصول إلى المدلول إلا من خلال الدال، يقول: « لا يصعب مرام اللفظ بسبب المعنى، وإنما يصعب مرام المعنى بسبب اللفظ ». وأكد الجرجاني أن لا مزية لحصر المعنى دون اللفظ، أو حصر اللفظ دون المعنى، فالمزيتة ترجع لكليهما على سواء؛ لأن اللفظ لا يتصور أن ينفصل عن المعنى؛ إذ لا بد لكل دال من مدلول، فترتيب الألفاظ ليس من حيث هي ألفاظ، بل هو كناية عن ترتيب المعاني، فأبي حنيفة أحدهما عن الآخر كان بتراً للفكر عن اللغة أو العكس، وهل يتصور أن تترتب معاني أسماء وأفعال وحروف في النفس ثم يخفى علينا مواقعها في النطق، حتى نحتاج إلى فكر وروية؟ وأن هذا ما لا يشك فيه عاقل إذا هو رجع إلى نفسه، يقول على طريقة المتكلمين ردًا على خصمه: « وإذا بطل أن يكون ترتيب الألفاظ ثم بالألفاظ مطلوبًا بحال، ولم يكن المطلوب أبدًا إلا ترتيب المعاني... فقد اضمحل كلامه » (ن.م: 62)

وفي موضع آخر يُفسر القصد من الترتيب وهو أنه: لَمَّا كانت المعاني لا تتبين إلا بالألفاظ، كان على المرتب أن يعلم ما صنع في ترتيبها بفكره في ترتيب الألفاظ في نطقه، فتجوزوا وكنوا ترتيب المعاني بترتيب الألفاظ ثم بالألفاظ بحذف الترتيب، ثم اتبعوا ذلك من الوصف والنعته ما أبان الغرض وكشف عن المراد. ثم قالوا بأن هناك "لفظ متمكن" يريدون أنه بموافقة معناه لمعنى ما يليه كالشيء الحاصل في مكان صالح يطمئن فيه، وعن آخر "قلق ناب" يريدون أنه من أجل معناه غير موافق لما يليه، كالحاصل في مكان لا يصلح له، ثم يعلم أنه مستعار له من معناه، وأنهم نخلوا إيّاه، بسبب مضمونه ومؤداه.

ومن هذا النص السابق ربما قصد الجرجاني الانتقال من هذا المعنى الارتباط الوثيق بين "اللفظ والمعنى"، أو "العلاقة بين ترتيب المعاني الألفاظ" إلى مستوى النطق، حيث يستخدم النظم في معنى التعليق أو التأليف بين المعاني النحوية أو العلاقات النحوية؛ لأنه لَمَّا كانت الألفاظ لم تُوضع لتعرف معانيها أنفسها، كما قال: فإن الفكر لا يمكنه أن ينفذ منها إلى الدلالات النفسية، فتكون العلاقات بين معاني هذه الألفاظ، أو ما يُعبر عنه بمعاني النحو، هو السبيل الوحيد للكشف عن الدلالات النفسية.

فالنظم عند عبدالقاهر هو تَوْحِّي معاني النحو؛ وبيان ذلك أن تضع كلامك الموضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي تهجت له فلا تزيغ عنها، ولا تخل بشيء منها. وهو بهذا يُريدنا أن ننظر إلى مستوى الصحة والذي لا بد منه من خلال التعليق بين الأسماء والأفعال والحروف، وهو ما ينقلنا للتمييز بين الدلالات المختلفة، وتحديد الدلالات المشتركة، والكشف عن الدلالات الخاصة والمعاني الإضافية، والتي منها تُدرك مستوى الجمال أو البلاغة. ولا بد أن نفهم النظم على طريقة الجرجاني تلك؛ لأنه لا قدر للكلام إذا هو لم يستقيم له، ولو بلغ في غرابة معناه ما بلغ، والجرجاني في حديثه عن مستوى الصحة النحوية لا يعني به مستوى حركات الإعراب في حد ذاتها، بل العلاقات النحوية بين أجزاء الكلام؛ إذ لا يرجع إليها وحدها الوصف بالصحة أو الفساد، يقول الإمام: "فلا ترى كلاماً وُصف بصحة نظم أو فساده، أو وُصف بمزية وفضل فيه، إلا وأنت تجد مرجع تلك وذلك للفساد، وتلك المزية وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه، ووجدته يدخل في أصل من أصوله، وتصل بباب من أبوابه" (ن.م: 83). ثم يُقدم لنا أمثلة تُبين صحة النظم لما تُوحي في العلاقات والتركيب، وكذا فساد النظم يرجع إلى تخليها عن قانون النحو ونظامه في العلاقة بين التراكيب، وإن كان الجرجاني لم يَفنع بكفاية العلاقات النحوية، فليست المزية بموجبة لها في حد ذاتها.

يقول الجرجاني: « وإذ قد عرفت أن مدار أمر النظم على معاني النحو... واستعمال بعضها مع بعض". وقوله أيضاً: "ليس من فضل ومزية إلا بحسب الوضع، وبحسب المعنى الذي تُرتب، والغرض الذي تؤم" (ن.م: 87). فالمعاني النحوية إذا جزء من المعاني العامة للأساليب، وفي ذلك توسيعٌ بدون شك لإطار النظم عنده، فلا يقتصر على العلاقات النحوية المختلفة فحسب، بل يضم إمكانات أسلوبية تختلف وتتعدد باختلاف وتعدد المقامات والأحوال، كما قال د. سعيد البحيري، وموضحاً بالرسم أيضاً: دلالات نفسية... دلالات أسلوبية كبرى... دلالات نحوية صغرى، خارج النص اللغوي... دلالات لفظية... داخل النص اللغوي (بحيري، 1997: 52-53)

فبذلك تتضمن نظرية النظم دلالات متنوعة، يتركز التفسير فيها على معايير لغوية؛ مثل: الدلالات المختلفة الناتجة عن الاختيار والتأليف، ومعايير غير لغوية؛ مثل: قصد المتكلم (+ معاني الكلام وأغراضه)، وحال المخاطب وأنواع السياقات والمقامات والأحوال. والأمثلة التي قدمها الجرجاني بياناً لصحة النظم تتمثل في (التقديم والتأخير، والتعريف، والفصل والوصل).

6- مراتب النظم عند عبد القاهر الجرجاني

مراتب النظم عند الجرجاني ثلاث: 1- النمط الأدنى من النظم 2- المستوى الثاني أرقى من الأول 3- المستوى العالي من النظم.

1-6 النمط الأدنى من النظم:

عبدالقاهر يبين التمييز بين نظم و نظم بقوله: «و اعلم أن من الكلام ما أنت تعلم إذا تدبرته أن لم يحتج واضعه الى فكر و روية حتى انتظم، بل ترى سبيله في ضم بعضه الى بعض سبيل من عمد الى لآلي فخر طها في سلك لا يبغى أكثر من أن يمنعها التفرق، و كمن نضد أشياء بعضها على بعض لا يريد في نضده ذلك أن تحي له منه هيئة أو صورة، بل ليس إلا أن تكون مجموعة في رأي العين، و ذلك إذا كان معنك معنى لا يحتاج أن تضع فيه شيئاً غير أن تعطف لفظاً على مثله» (الجرجاني، 1984: 67). و هذا هو النمط الأدنى من النظم، و مزية هذا اللون من التعبير جعلها عبدالقاهر في لفظه دون نظمه، لأنه لا يعدو ضم جمل عطف بعضها على بعض من غير أن يقصد فيها الى تؤولف هذه الجمل صورة معجبة أو تبرز هيئة مثيرة، و هذا اللون لا يحتاج الى فكر و روية، و لا يتطلب صنعة دقيقة يتخير فيها منشىء الكلام صورة دون صورة، و يكون هذا التخير صواباً في ابراز المعنى.

2-6 المستوى الثاني من النظم

أما المستوى الثاني من النظم فهو الذي يحتاج واضعه الى فكر و روية، يرجع حسنه الى اللفظ و النظم، و هو المستوى الراقى من مستويات النظم و يمثل له عبدالقاهر بقول ابن المعتز:

و إني على إشفاق عيني من العدا لتجمع منى نظرة ثم أطرق

« فترى أن هذه الطلاوة، و هذا الظرف إنما هو جعل النظر يجمع، و ليس هو لذلك، بل لأنه قال في أول البيت (و إني) حتى أدخل اللام في قوله (لتجمع) ثم قوله (مني) ثم لأنه قال (نظرة) و لم يقل النظر مثلاً، ثم لمكان (ثم) في قوله ثم أطرق، و للطفة أخرى نصرت هذا للطائف و هي اعتراضه بين اسم إن و خبرها بقوله: على شفاق عيني من العدا» ثم يقول عبدالقاهر: « و إن أردت أعجب من ذلك- أي حتى تتأكد من أن المزية للنظم و حسن اللفظ- فانظر الى قول سبيع بن الخطيم التيمي في مدح زيد الفوارس الضبي»:

سالت عليه شعاب الحي حين دعا أنصاره بوجوه كالدنانير

فإنك ترى هذه الاستعارة على لطفها و غرابتها إنما تم لها الحسن، و انتهى الى حيث انتهى بما توخى في وضع الكلام من التقديم و التأخير، و تجدها قد ماحت و لطفت بمعاونة ذلك و مؤازرته إياها. وإن شككت فاعمد الى الجارين: عليه و بوجه- و الظرف (حين) فأزل كلا منها عن مكانة الذي وضعه الشاعر فيه فقل:

سالت شعاب الحي بوجوه كالدنانير عليه حين دعا أنصاره، ثم انظر كيف يكون الحال، و كيف الحسن و الحلاوة، و كيف تعدم أريجيتك التي كانت، و كيف تذهب النشوة التي كنت تجدها، ثم يقول: و جملة الأمر أن ها هنا كلاماً حسنة للفظ دون النظم

وآخر حسنة للنظم، أي أكثر من اللفظ كقول ابن المعتز: و إنى على إشفاق عيني من العدا. و ثالثاً: قرى الحسن من الجهتين و وجبت له المزية بكلا الأمرين»(ن.م: 68-69)

فهذا المستوى من النظم يحتاج واضعه الى فكر و روية، و فيه حسن و مزية، كما في البيتين السابقين، و الحسن و المزية إنما جاءا من النظم أي من دقة ارتباط أجزاء الكلام وقوة ترتيب بعضها على بعض، كما جاء من حسن اللفظ: أي من حسن الصورة البيانية في قول سبيع: سالت عليه شعاب الحي... حيث أسند السيل إلى الشعاب دون الأنصار، لأن الشيء الواقع في محل إن كثر أسند إلى المحل لكثرة تلبسه به، وفيه إشارة الى الكثرة، وأنها ملأت المكان، وهي استعارة جميلة حيث استعار سيلان السيول التي في الأباطح لسير الذبل سيراً حثيثاً هو غاية في السرعة مع لين و سلاسة، و نظير هذا قوله تعالى: «واشتعل الرأس شيباً»(مريم/4) فالحسن و المزية والشرف للنظم و اللفظ معاً(ن.م: 69)

فكما جاء الحسن و المزية من النظم جاء أيضاً من حسن اللفظ- أي من حسن الصورة البيانية- لأنهم لم يوجبوا للفظ ما أوجبه من الفضيلة وهم يعنون نطق اللسان وأجراس الحروف، ولكن جعلوا كالمواضعة فيما أن يقولوا اللفظ وهم يريدون الصورة التي تحدث في المعنى، والخاصة التي حدثت فيه، ويعنون الذي عناه الجاحظ عندما قال... وإنما الشعر صياغة وضرب من التصوير(م.ن: 299)

فالحسن والمزية في هذا النوع من جهتي النظم واللفظ أي من جهتي مسائل علم المعاني.. وفنون البيان، فقد تعاون كل منهما مع الآخر في الارتقاء بالنظم، وإن كان التأثير الأكبر في المزية للنظم.

3-6 المستوى العالي من النظم

أما المستوى العالي من النظم فهو ما أشار اليه عبدالقاهر عندما تحدث عن النمط العالي الذي يتحد في الوضع و يدق فيه الصنع حيث قال: «واعلم أن مما هو أصل في أن يدق

النظر، و يغمض المسلك في توحي المعاني التي عرفت.. أن يتحد أجزاء الكلام و يدخل بعضها في بعض، و يشتد ارتباط ثان منها بأول، و أن يحتاج الى أن تضعها في النفس وضعاً واحداً، و أن يكون حالك فيها حال الباقي يضع بيمينه ههنا في حال ما يضع بيساره هناك، نعم و في حال ما يرى مكاناً ثالثاً و رابعاً يضعهما بعد الأولين، و ليس لما شأنه أن يجيء على هذا الوضع حد يحصره، أو قانون يحيط به، فإنه يجيء على وجوه شتى و أنحاء مختلفة، فمن ذلك تزواج بين معنيين في الشرط و الجزء معاً كقول البحتری:

إذا ما نهي الناهي فلجّ بي الهوى أصانت الى الواشي فلج بها الهجر

(ن.م: 64)

الازدواج و المزاوجة لغة اقتران الشيئين، و قد زواج الشاعر بين نهي الناهي و إصاحتها الى وشي الواشي الواقعين في الشرط و الجزء، فترتب علىهما لجاج شيء.

فبعدالظاهر يرى أن هذا النمط هو أرقى مستوى في فن تأليف الكلام الإبداعي، و هو الذي يراعي فيه مؤلفه حال الكلمة مع أخواتها، و يراعي شدة ارتباطها بجاراتها، و يكون المؤلف من القدرة بحيث يضع الكلام في نفسه وضعاً واحداً، و يتصرف في ترتيبه و تنسيقه بإبداع رائع، كما يتصرف الباقي الماهر في تنسيق أبنيته و تزويقها، بحيث تبهر من ينظر إليها، كذلك المؤلف الماهر يعرف كيف ينسق كلماته المؤلفة، و يضع كلا منها في موقعها الملائم لها الذي اقتضاه المقام بحيث لو حولت كلمة عن مكانها و أبدل بها غيرها ترتب عليه إما فساد المعنى و إما ذهاب رونق البلاغة.

فمثلاً في قول البحتری السابق:

إذا ما نهي الناهي فلجّ بي الهوى أصاحت الى الواشي فلج بها الهجر

كانت مقدرة الشاعر في أنه زواج بين نهي الناهي و إصاحتها الى شوى الواشي الواقعين في الشرط و الجزء، فترتب عليهما لجاج شيء، و من هنا كانت البراعة والوصول

الى أعلى مستوى في التأليف الإبداعي للكلام حيث إن الشاعر كان خبيراً بما أراد أن يعبر عنه قديراً على صوغ العبارة في أعلى مستوى من التأليف، لأنه عندما ذكر الشرط ورتب عليه لجاح الهوى به قدر في نفسه أن يذكر الجواب مرتباً عليه شيئاً مثل ما رتب على الشرط، فقال: فلج بها الحجر، و هنا يكون التأليف في أعلى درجاته، و هكذا دق الصنع في باقي الأمثلة فجاد تأليفها و تنسيقها.

والسر في جودة هذا اللون و عدم الجودة في غيره من التعبيرات أن كل إنسان يشعر شعوراً خاصاً به، و يجيء كلامه معبراً عن هذا الشعور، فالعبارة تختلف باختلاف شعور الإنسان المعبر، و باختلاف قدرته على التعبير عن انفعالاته النفسية.

فالإنسان العادي يشعر شعوراً عادياً، و يكون تعبيره عادياً كذلك، أما البليغ و الشاعر فيشعر كل منهما بما لا يشعر به غيره، إذ يشعر بالخواطر عميقاً، و الفكرة متشعبة، و يلمح الصلات بين المعاني و بين العبارة عنها، فيجيء كلامه معبراً عن هذا الشعور أدق تعبير، و كلماته متخيرة منتقاة غير عادية، و من هنا يختلف التعبير، و يوجد أسلوب أكثر من أسلوب.

وعبدالقاهر يرى أن أي فن من فنون البلاغة متى اقتضاه المقام، و استدعاه المعنى، و كان موفياً بالغرض مكماً للنظم، فهو من البلاغة في الصميم، و من النظم في الوساطة.

ومما تجدر الإشارة إليه أنه مهما وصل النظم إلى أرقى مستوى، و كان من نظم البلغاء والأدباء و الشعراء فهو دون نظم القرآن الذي فاق نظمه كل نظم، و سما أسلوبه على كل أسلوب، و كانت بلاغته فوق مقدور الإنس و الجن.

والحق أن الإمام عبدالقاهر برهن على أنه صاحب ذوق ممتاز، و قريحة وقادة تدرك أسرار الجمال، و تميز الفروق الدقيقة بين صور الكلام، حتى إنه ليحس أن المعنى يتألم ويتظلم إذا لم يؤد بالعبارة الملائمة. ومما أتى مستكراً نابياً، يتظلم منه المعنى وينكره قول أبي تمام:

قريب الندى نائي الحل كأنه هلال قريب النور ناء منازل

وسبب الاستكراه أن المعنى ينبو عنه أنه يوهم بظاهره أن ههنا أهلة ليس لها هذا الحكم- أعني أنه ينأي مكانه و يدنو نوره- و ذلك محال، فالذي يستقيم عليه الحال أن يؤتي به معرّفاً على حده في قول البحترى:

كالبدر أفرط في العلو و ضوءه للعصبة السارين جد قريب

(لاشين، د.ت: 50-51)

7- تلاقى عبد القاهر الجرجاني مع اللغويين المحدثين :

يلتقي عبد القاهر بمنهجه الفريد وفكره المستنير مع المفكرين الغربيين، ولوحاته اللغوية الرائعة رغم اتّساع بساط الزمن بينه وبينهم في حديثه عن كثير من القضايا وخاصة ظاهرة النظم:

تتفق اللسانيات المعاصرة على نقطة، هي أن الكلمات لا معنى لها، وليس لها إلا وظائفها. وهذا يعني أن علاقات الكلمة ضمن الخطاب مع الكلمات الأخرى في السلسلة الكلامية، هي التي تحدد معنى الكلمة، ولا معنى للكلمة خارج الخطاب. إن هذا الفهم للنحو هو الذي يضمن الكشف عن المعنى الدلالي النحوي في الخطاب وعن الوظيفة الشعرية للنحو في النص، إلا أن هذا الفهم قد ابتعد عنه النحاة العرب قديما الا ما ندر منهم وخير مثال على ذلك هو عبد القاهر الجرجاني الذي سعى إلى كشف أهمية النظم، وما النظم إلا توحي معاني النحو. فسلط الأضواء على بعض النصوص القرآنية والشعرية التي تمثل طبقة عليا من الفصاحة والبلاغة وحاول البحث عن سر جماليتها، وقرر أنه في النظم مدركا بذلك الوظيفة الشعرية والدلالية للنحو. ان الجرجاني في كتابه (دلائل الإعجاز) رأى في النحو ذاك الأساس الذي يفرق بين الأساليب المختلفة من الكلام فتبدو

من منظور النحو المعياري أساليب متساوية كالتقديم والتأخير والإخبار بالوصف أو الإخبار بالفعل.

وقد ترددت فكرة نحو الشعر وشعر النحو التي تدور في الفلك نفسه عند جاكبسون في كتابة قضايا الشعرية، فلفت انتباهي ذلك التقارب في الأفكار بين عالين تباعدا زمانا ومكانا .

قد تنبه عدد من المحدثين للطفرة التي أحدثها الجرجاني في منهج البحث النحوي العربي ، إذ قال د . إبراهيم مصطفى : «ولقد آن لمذهب عبد القادر أن يحيا وأن يكون هو سبيل البحث النحوي ، فإن من العقول ما أفاق لحظة من التفكير والتحرر وان الحس اللغوي أخذ ينتعش ويتذوق الأساليب ويزنها بقدراتها على رسم المعاني والتأثير بها من بعد ما عاف الصناعات اللفظية وستم زخارفها» (مصطفى، 1959: 26-20) وقال د. أحمد مطلوب: «يختلف منهجه عن منهج النحاة في بحثه الأساليب النحوية كما يختلف في فهمه وتفسيره لهذه الأساليب اختلافا كبيرا فقد أعطى هذه الموضوعات حياة فقدتها على يد الذين قللوا من قيمة النحو وزهدوا فيه أو نظروا إليه نظرة ضيقة تنحسر في الإعراب والبناء» (مطلوب، 1973: 58) ومنهم من رأى أن النحو هو: « قانون تأليف الكلام وبيان لكل ما يجب أن تكون عليه الكلمة في الجملة والجملة مع الجمل ، حتى تنسق العبارة ، ويمكن أن تؤدي معناها» (الصعيدى، 1947: 10) وبناء على ذلك تظهر خصوصية نظرة الجرجاني للنحو إذ انه تجاوز أواخر الكلم وعلامات الإعراب وبين أن الكلام نظم، وأن رعاية هذا النظم واتباع قوانينه هي السبيل إلى الإبانة والإفهام

وقد اقترب مفهوم الجرجاني للنحو وعلاقته بالأساليب اللغوية من مفهوم جاكبسون، وما قاله عن الوظيفة الشعرية للنحو، ويظهر هذا التقارب في جملة أمور منها:

أولاً: التفريق بين المستوى المعجمي والمستوى النحوي للغة: إذ يقول الجرجاني: «الكلام على ضريين : ضرب أنت تصل منه إلى الغرض لدلالة اللفظ وحده ... وضرب

آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض لدلالة اللفظ وحده» (الجرجاني، 1984: 173). وقال في موضع آخر: «إن الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها ولكن لأن يضم بعضها إلى بعض فيعرف فيما بينها من الفوائد» (ن.م: 273)

فهو يفرق في كلامه المتقدم بين المعنى المعجمي للفظ وما يدل عليه الكلام بدلالة اللفظ وحده وبين المعنى النحوي الذي يتحقق من خلال فهم الكلام بضم بعضه إلى بعض بحسب العلاقات النحوية بين الألفاظ، فيظهر المعنى بواسطة المستوى النحوي للغة .

أما جاكبسون فقد تنبه إلى هذه الثنائية القائمة بين المستوى المعجمي المادي للغة وبين المستوى النحوي لها وقد وصفها جاكبسون بأنها واقعة بنيوية موضوعية. (جاكبسون، 1988: 364)

ثانيا: ترجيح النحو على ضروب المجاز: إذ قال الجرجاني في هذا المعنى: إن المزية في قوله تعالى: (واشتعل الرأس شيبا) ليس للاستعارة وحدها ولكن لنظم العبارة ومجيء الرأس فاعلا و (الشيب) تمييزا ، ولو قيل (اشتعل شيب الرأس) لذهبت تلك المزية. (الجرجاني، 1984: 69). انتهى إلى أن الاستعارة والتشبيه وسائر ضروب المجاز لا يتصور أن يدخل شيء منها في الكلم وهي أفراد لم يتوخ فيها حكم من أحكام النحو. (بدوي، د.ت: 87)

أما جاكبسون فقد اقترب من هذا المعنى كثيرا إذ رأى أن صور النحو تحل محل المجازات، وضرب مثلا لذلك قصيدة (بلا صور) إذ قال: (إن صور النحو في قصيدة (بلا صور) هي التي تصير مهيمنة وهي التي تحل محل المجازات. وتعتبر {كذا} القصائد الغنائية لبوشكن... شأنها شأن أنشودة معركة هوسيت ، أمثلة بليغة عن الاستخدام المحتكر للأدوات النحوية. (جاكبسون، 1988: 71)

ثالثا: الوظيفة الشعرية للنحو: لقد تحدث الجرجاني عن النظم وصلته بالنحو لكنه لم يرد النحو الجامد والقوانين والحدود التي وضعها علماء النحو – كما تقدم – بل أراد ذلك

العلم الذي يكون الأساس في التفريق بين الأساليب اللغوية من فصل ووصل ، وتقديم وتأخير، وذكر وحذف وغيرها فالفرق بين هذه الأساليب ليس فرقا في الحركات وما يطرأ على الكلمات وإنما في معاني هذه العبارات يحدثها ذلك الوضع والنظم الدقيق لذا لم يكن هدفه معرفة قوانين النحو وحسب بل فيما تؤدي إليه هذه القوانين. (الجرجاني، 1984: 64) وقد طبق الجرجاني كلامه السابق على بعض النصوص وأروع ما حلل قول بشار بن برد :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا ** وأسيافنا ليلٌ تهاوى كواكبُه

وفيه يبين الجرجاني دور العلاقات النحوية في صياغة المفردات في الجملة إذ قال: (هل يتصور أن يكون بشار قد أحضر معاني هذه الكلم بباله أفرادا عارية من معاني النحو التي نراها فيها وأن يكون أوقع {كأن} في نفسه من غير أن يكون قصد إيقاع التشبيه منه على شيء ، وأن يكون فكر في (مثار النقع) من غير أن يكون قد أراد أن يضيف (فوق) إلى (الرؤوس) وفي (الأسياف) من دون أن يكون أراد عطفها بالواو على (مثار) وفي الواو من دون أن يكون أراد العطف بها ، وأن يكون كذلك فكر في (الليل) من دون أن يكون أراد أن يجعله خبرا لـ (كان) وفي (تهاوى كواكبُه) من دون أن يكون أراد أن يجعل (تهاوى) فعلا (للكواكب) ثم يجعل الجملة صفة الأشياء بباله إلا مرادا فيها هذه الأحكام والمعاني التي تراها فيها ؟

ليت شعري كيف يتصور وقوع قصد منك إلى معنى كلمة من دون أن تريد تعليقها بمعنى كلمة أخرى؟ ومعنى القصد الكلم أن تعلم السامع بها شيئا لا يعلمه؟ ومعلوم أنك أيها المتكلم لست تقصد أن تعلم السامع معاني الكلم المفردة التي تكلمه بها ، فلا تقول (خرج زيد) تتعلمه معنى (خرج) في اللغة ، ومعنى (زيد) كيف ومحال أن تكلمه بألفاظ لا يعرف معانيها كما تعرف. (ن.م: 267) ان النص السالف الذكر يؤكد خضوع الكلمة عند الجرجاني - لمحوري الاختيار والتأليف وما يضيفه النظم من معاني جديدة للكلمة

تكتسبها بفعل العلاقة النحوية بين الألفاظ ، وهو بذلك يؤكد منابع التفسير الدلالي المتكامل للجملة (حماسة، 1983: 102). فالنظم بين ألفاظ البيت أخرجه هذا المخرج ولو غيرت الألفاظ عن مواقعها لفسد التشبيه .

أما جاكبسون فقد أشار إلى الوظيفة الشعرية للنحو من خلال اختلاف الشكل النحوي للخطاب من نص لآخر ومن جملة لأخرى ضاربا لذلك أمثلة كثيرة من بينها قوله: « إننا حينما نقرأ... الحياة جميلة ، ويجمل أن نحيا فإنه من الصعب أن نجد في المستوى المعرفي فرقا بين هاتين الجملتين ... إلا أن الاختلاف اللساني الذي يضطلع بمهمة التسمية ومن ثم مهمة التحوز النحوي النقلي إلى صورة كنائية عن الحياة بوصفها كذلك ... فهي في حد ذاتها مستبدلة بالناس الأحياء» (جاكبسون، 1988: 65) وهكذا أخذ جاكبسون يدقق في النصوص الشعرية مسلطا الضوء على الكيانات النحوية وما لها من أثر واضح في بلاغة هذه الأبيات وشعريتها. امتد نظر جاكبسون أبعد من نظر الجرجاني إذ قصره الجرجاني على البيت الشعري الواحد أو المقطع إلا أن جاكبسون مد نظره إلى النص برمته فلم يقصر نظره على البيت الواحد بل امتد إلى القصيدة بأسرها متتبعا ما أسماه (بالزخارف النحوية في الشعر) ومنها التكرار ويريد تكرار الصور النحوية، الذي كثيرا ما يكثر في القصائد الملحمية الطويلة.

نخلص مما سبق إلى أن الرجلين قد اتفقا على أن أي تغير يلحق بالجملة من شأنه أن يغير المعنى ويحيله عن جهته، وأن النحو هو الركيزة التي تستند إليها الدلالة.

ويلتقي أيضاً الجرجاني مع دي سوسور في حديثه عن العلاقة القائمة بين الفكر واللغة من أن لا كيان للغة إلا في ذهن الأفراد، ولا وجود للأفكار دون كلمات، ولا حياة للكلمات دون أفكار، وبأن اللغة أساس الفكر، وهي طريق الإنسان إلى إدراك الحياة ومعرفة الحقيقة، بل إنها عنصر من العناصر المهمة في حياة الإنسانية جمعاء، تُلْزِم الفرد في حياته، وتمتدُّ إلى الأعماق من كيانه، وتبلغ إلى أخفى رغباته وخطراته.

لقد أدرك عبد القاهر الجرجاني طبيعة العلاقة القائمة بين الفكر واللغة، وأن هذه العلاقة طبيعية بين الألفاظ ودلالاتها، وبأنها قائمة بوجود الحياة في الأجسام الحية، ولتوضيح ذلك أعرّج على الاتجاه القائل بالفصل بين الفكر واللغة؛ فقد اعتبروا أن العلاقة القائمة بين الفكر واللغة علاقة مباشرة، قائمة بين الرمز وذات الشيء نفسه، وأن تركيب الكلام يجب أن يكون مُساوياً لما فيها من أسماء للجماجم والحيوان، وأصحاب هذا المذهب (الفيلسوف العربي جابر بن حيان والفارابي، وابن سيده)، وهو اتجاه متأثر إلى حد بعيد بما جاء به (أفلاطون) الفيلسوف اليوناني (محمد مراد، 1983: 153)

يرد ذلك ما قاله (دي سوسير) في حديثه عن طبيعة العلاقة اللغوية: إن العلاقة اللغوية لا تخلو من الوحدة بين الاسم والشيء، ولكن بين فكرة وصورة سمعية، فالوحدة جامعة بين الاسم والفكرة، والعلاقة قائمة بين الكلمة والفكرة التي هي في الذهن، ولا يمكن أن يكون من الكلمة والشيء وحدة واحدة.

رأى عبد القاهر أن الألفاظ تخدم المعاني، والمعاني هي الأصل في أيّ تعبير لغوي داخل نظام محكم، فاللغة إذاً غير الفكر، مع وجود تلاحم بينها في ارتباط عضو محكم. يقول الجرجاني: « ليس الغرض من توالي الكلم أن توالى ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالتها، وتلاقّت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل... » (الجرجاني، 1984: 25). نلاحظ من النص السابق العلاقة العضوية التي لمسها عبد القاهر بين الفكر واللغة، وعليه تتوقف درجة نجاح التعبير اللغوي ودلالاته في إبداعه معنى معيناً، وعليها تتوقف قوة ترابط الأفكار وترابط دلالاتها مع دلالات الكلمات الأخرى. ويبدلي العالم اللغوي السويسري دي سوسير برأيه في طبيعة هذه العلاقة قائلاً: « إنّه لا كيان للغة إلا في ذهن الأفراد؛ وعلى ذلك فلا وجود للأفكار بدون كلمات، ولا حياة للكلمات بدون أفكار » (محمد مراد، 1983: 154)

يقول عبد القاهر: « ما في الألفاظ لولا المعنى، وهل الكلام إلا بمعناه؟! ». تنبّه الجرجاني إلى هذا الترابط، فأشار إلى الإعراب والموسيقا اللفظية، وجمال الصورة وحسن الأسلوب، والفكرة والرمز، والتناسق والانسجام داخل جسم واحد؛ حيث يصعب التخلي عن أي رابط، وإلا ضعف التركيب، وانتفى الإعجاز. ويؤكد عبد القاهر دائماً على شدة الارتباط بين الفكر واللغة، وعدم إمكانية الفصل بينهما بفاصل، وبأن عملية التفكير بالمعاني سابقة لعملية التفكير باللفظ، بقوله: واعلم أن ما هو أصل في أن يدق النظر ويغمض المسلك في تَوْحِي المعاني التي عرفت، أن تتحدّد أجزاء الكلام، ويدخل بعضها في بعض، ويشتدّ ارتباط ثانٍ منها بأوّل، وأن يحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعاً واحداً، وأن تكون حالك فيها حال الباني؛ يضع بيمينه هاهنا في حال ما يضع بيساره هناك، ومن دقيق ذلك وخفيّه أنّك ترى الناس إذا ذكروا قوله - تعالى -: ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً ﴾ (مريم/4) لم يزيدوا فيه» (الجرجاني، 1984: 308، 265). إنّ عملية نظم الكلام وترتيبه ضمن الترابط العضوي بين الفكر واللغة تتطلب جهوداً فكرية في المعاني قبل عملية التفكير في تنظيم الألفاظ وترتيبها حسب ترتيب المعاني في النفس وتناسق دلالاتها؛ كي تتلاقى معانيها على الوجه الذي يرتضيه العقل، ويقتضيه علم النحو وقوانينه وأصوله، «إنّ عملية تنظيم الكلمات وتركيبه النفساني يخضع لقوانين لغوية».

وقد سبق الجرجاني تشومسكي بثمانية قرون في طرح مفهومي الكفاية والأداء اللغوي. في الواقع إن الكفاية والأداء القدرتين اللتين وردتا في نظرية الدكتور تشومسكي لا تختلفان كثيراً عن الفطرية والشمولية اللتين تحدث عنهما الجرجاني. فالكفاية تعني تخزين اللغة، مفردات وتعابير، وخلال ذلك تتكون خلايا اللغة في الدماغ والقواعد والقوانين التي تسير عليها اللغة، والتي تؤدي إلى أن تكون هذه الخلايا قادرة على إنتاج عدد غير محدود من الجمل - عن طريق هذه القواعد - من عدد محدود من الجمل أو القوالب، ولكنها تظل في حالة سكون حتى يثيرها مثير خارجي أو داخلي، فتبرز منها - عملياً - الجمل التي تناسب هذا المثير. والأداء، هو القدرة على الإنتاج الفعلي للجمل المرتبطة بالمثير والتي تعبر عن معنى. ومثل هذا.. قاله الإمام عبد القاهر الجرجاني في كتابه (دلائل الإعجاز)، منذ القرن

الخامس المهجري - الثاني عشر الميلادي قال: (وإذا كان لا يكون في الكلّم نظم ولا ترتيب إلا بأن يُصنع بها هذا الصنيع ونحوه، وكان ذلك كله مما لا يرجع منه إلى اللفظ شيء، ومما لا يتصور أن يكون فيه ومن صفته.. بأن لك أن الأمر على ما قلناه من أن اللفظ تبع للمعنى في النظم، وأن الكلّم يترتب في النطق حسب ترتيب معانيه في النفس، وأما لو خلت من معانيها حتى تتجرد أصواتاً وأصداً حروف.. لما وقع في ضمير ولا هَجَسَ في خاطر أنه يجب فيها ترتيب ونظم، وأن يُجعل لها أمكنة ومنازل، وأنه يجب النطق بهذه قبل النطق بتلك(الجرجاني، 1984: 55-56)

أقول: قوله: إن اللفظ تبع للمعنى في النظم، وأن الكلّم يترتب في النطق حسب ترتيب معانيه في النفس يعني شيئين: الأول -أن المرء لا يستقبل ألفاظاً دون معانٍ، وغالباً ما تأتي الألفاظ في تعابير تقوم على معانٍ مركبة. وثانياً -أنه ينطق بالألفاظ -غالباً -في تعابير تترتب في النطق والكتابة حسب ترتيب معانيها في النفس (أي العقل) وهذا، يعني أن مستقرّ المعاني هو النفس (العقل)، ولن تستقر المعاني في العقل لولا أن لها خلايا معينة فيه قادرة على الاستقبال، ولن تكون قادرة على الاستقبال لولا أن تكونت فيها مسارب (قوالب) للمعاني وللألفاظ، كمفردات وتعابير تقوم على أساس هياكل تراكيب تكونت في هذه الخلايا. وهذه المسارب وهذه التراكيب قادرة على التعبير بالألفاظ حسب ترتيب المعاني فيها. ولما كانت المعاني غير متناهية فهذا يعني أن هذه المسارب وهياكل التركيب قادرة على توليد ما لا يحصى من المعاني، وإلاّ لما استطاع متكلم أن يأتي بجديد في المعنى الذي يستتبع ألفاظاً جديدة أحياناً، أو ترتيب ألفاظ قديمة ترتيباً جديداً، أو جمعاً بين بعض الألفاظ الجديدة والقديمة مع ترتيب جديد لها. إذن - عبد القاهر الجرجاني سابق لتشومسكي بقرون في معرفة هذه النظرة اللغوية. وهنا يحسن أن نلاحظ أن عبد القاهر الجرجاني قال بأن الألفاظ تترتب حسب ترتيب المعاني في (النفس) ولم يقل: في العقل. لأن العقل لا يتحرك إلا إذا حركته النفس. ولهذا فاستنفار العبارات في خلايا من الدماغ لا يكون إلا إذا حركت الدماغ النفس (الوجدان)، ولهذا يختلف ترتيب المعاني في العقل، وترتيب الألفاظ تبعاً لذلك -في مجال العلم أو الفكر عن ترتيبهما في مجال الأدب، لأن

النفس تكون مستقرة إلى حدّ كبير عند التفكير العلمي والفلسفي والنقد - على تفاوت في استقرارها -إنها تتحرك بنسبة عشر درجات في المئة إلى عشرين، وبذلك.. يكون حفرها للعقل محدوداً، مما يقي الألفاظ المستنفرة على ترتيب بسيط، مثلاً.. يأتي الفعل ثم الفاعل ثم يأتي المفعول. وهكذا.. تخرج إلى الوجود.

8- نتيجة البحث

إنّ عبد القاهر الجرجاني يَضَع منهجاً للفكر البلاغي بعامّة والفكر اللغوي بخاصّة من خلال نظريّة النظم في كتابه "دلائل الإعجاز"، و يمكن تلخيص طريقته في تناوله قضية النظم فيما يلي:

أولاً- لا تفاضل بين كلمة و أخرى في الدلالة على المعنى قبل دخولها في نظم الكلام بأكثر من أن تكون هذه مألوفة مستعملة و تلك غريبة وحشية - كالطش للموضع الخشن- أو أن تكون حروف هذه أخف، و امتزاجها أحسن، و مما يكد اللسان أبعد، لأن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، و لا من حيث هي كلم مفردة- أي لا يكون بين الكلمتين المفردتين تفاضل في الدلالة على ما وضعت له الكلمتان فلا تكون كلمة(رجل) أدل على معناها من كلمة(فرس) على معناها. و هذا الأساس الذي وضعه عبد القاهر لبعض مقاييس الفصاحة في المفردات أفاد منه المتأخرون في وضعهم ضوابط فصاحة المفرد و فصاحة الكلام، إنما تثبت للكلمة المفردة الفضيلة و المزية إذا لاءمت معاني التي تليها، بدليل أنك ترى الكلمة تروك و تؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك و توحشك في موضع آخر.

ثانياً- ترتيب الألفاظ في النطق على حسب ترتيب المعاني في النفس، و الدليل على ذلك ما يلي:

أ. أن الألفاظ لا تستحق من حيث هي ألفاظ أن تنطق على وجه دون وجه.

ب. أنه لو كان القصد بالقصد بالنظم الى اللفظ نفسه، دون أن يكون الغرض هو ترتيب المعاني في النفس، ثم النطق بالألفاظ على حذوها لكان ينبغي ألا يختلف حال اثنين في العلم بحسن النظم أو غير الحسن فيه، لأنهما يحسان توالي الألفاظ إحساساً واحداً، ولا يعرف واحد منهما ما يجله الآخر.

ج. أن النظم الذي يتوابعه البلغاء، و تتفاضل مراتب البلاغة من أجله صنعة يستعان عليها بالفكر لا محالة، و يستخرج بالرؤية، و الفكر و الروية يتعلقان بالمعنى أولاً ثم بالألفاظ الدالة على هذا المعنى.

د. أن الألفاظ - كما يقولون - أوعية للمعاني، و لهذا وجب أن تتبع المعاني في مواقعها، فإذا وجب لمعنى أن يكون أولاً في النفس، وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله أولاً في النطق، و لهذا فإن المعاني هي المقصودة بالنظم و الترتيب قبل الالفاظ، و الفكر في النظم الذي يتوابعه البلغاء إنما هو فكر في المعاني، و لهذا تجدد لا تحتاج بعد ترتيب المعنى في نفسك الى فكر تستأنفه لتجيء بالالفاظ على حذوها.

و يخرج عبدالقاهر من هذا بثمره تلتخص فيما يأتي:

أ. أنه لا يتصور أن تعرف للفظ موضعاً من غير أن تعرف معناه، كما أنه لا يصور أن تتوخى في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ترتيباً و نظماً.

ب- أن تتوخى الترتيب في المعاني، و أن تعمل فكرك فإذا تم لك ذلك أتبعها الالفاظ، و قفوت بها آثارها.

ج. إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك وجدت الالفاظ مرتبة على حذوها في نطقك، و لم تحتج الى أن تستأنف فكراً في ترتيبها، لأن الالفاظ خدم للمعاني، و تابعة لها، و لاحقة بها.

د. أن العلم بمواقع المعاني في النفس علم بمواقع الالفاظ الدالة عليها في النطق.

ثالثاً - لا نظم في الكلم حتى يعلق بعضها ببعض، و يبنى بعضها على بعض، أي بعد عمل الفكر في المعاني، و اختيار الالفاظ الملائمة لها، و الدالة عليها، و ترتيبها على حسب ترتيب المعاني في النفس، تأتي المرحلة الثالثة: و هي أن تربط برباط النظم، و ما هو إلا أن تعلق بعضها ببعض، و تبنى بعضها على بعض، و معنى هذا: تعمد الى اسم فتحجله فاعلاً لفعل أو مفعولاً، أو تعمد إلى اسمين فتحجعل أحدهما خبراً عن الآخر. أو تتبع الاسم اسماً على أن يكون صفة للأول أو تأكيداً له بدلاً منه.

رابعاً - ان المزية في النظم من حيث المعنى و من حيث اللفظ باعتبار دلالته على المعنى، لان المراد بالمعنى هو المعنى المصور الذي لا وجود له إلا بعملية الصياغة و النظم.

خامساً - ان ثمرة النظم هي تصوير المعنى، و تصوير المعنى هو الهدف الاساس من النظم، و أن هذا التصوير يتألف في أروع صوره إذا جاء عن طريق الصور البيانية الأخاذة كالكتابة و المجاز.. و قد ضمن ذلك فصلاً من دلائل الإعجاز جعله فصلاً في اللفظ يطلق و المراد به غير ظاهره.

وقد توصّلت إلى نتائج عدّة من خلال البحث في نظرية عبد القاهر الجرجاني:

- 1- إن عبد القاهر الجرجاني من خلال نظرية النظم قد اهتمّ بجانب الصحة الداخلية (البنية أو الصرف والعلاقات والتراكيب)، والصحة الخارجية (المقام أو الحال)، ولا يخفى أن اللغة ظاهرة اجتماعية، تتحدّد دلالة ألفاظها من خلال السياق وملابساته.
- 2- ربط عبد القاهر الجرجاني بين مستويين من مستويات اللغة: المستوى الأول: مستوى ما قبل النطق، والمستوى الثاني: مستوى ما بعد النطق؛ أي: المستوى الذهني الذي يختصّ به علماء النفس أكثر من علماء اللغة، وهو مستوى اختيار المعاني والألفاظ الدالة وانتقاء الأفكار، ومستوى النطق وهي العلاقات والتراكيب القائمة على معاني النحو، الذي يخضع لدراسة اللغة واختصاصها.

- 3- رَبط عبد القاهر الجرجاني بين مستوى ما قبل النطق، والمستوى اللغوي المنطوق، وبين الحال والمقام والذي تتحقق به البلاغة، وهو بذلك رَبط بين الفكر واللغة، وهو بهذا يَختَلِف عن سابقيه حيث اعتبروا وجه الإعجاز في الألفاظ "المنطوق" دون المعاني.
- 4- لقد أخرج الجرجاني البحث النحوي من جموده وحرره من قيود الصواب والخطأ وأضاف له سمة جديدة تحفظ له الديمومة والتجدد . وهي علاقة النحو بالدلالة .
- 5- ان ما أثاره جاكبسون من اهتمام العلماء واللغويين بأفكاره التي طرحها عن شعر النحو ونحو الشعر ، وكشفه الحجاب عن شعرية النحو ، فقد سبق أن أشار إليه الجرجاني في كتابة دلائل الإعجاز إشارة مجملة وهذه نقطة التقاء كبيرة بين الجرجاني وجاكبسون نتج عنها نقاط التقاء أخرى منها:
- أ - التفريق بين المستوى المعجمي والمستوى النحوي للغة . ب- ترجيح الصور النحوية وشعريتها على ضروب الجاز .
- 6- تَلَاَقَى عبد القاهر الجرجاني مع علماء اللغة المحدثين بفكره الفذ داخل مجال البحث اللغوي في قضيتة العلاقات القائمة بين الفكر واللغة من أن لا كيان للغة إلا في ذهن الأفراد، ولا وجود للأفكار بدون كلمات، ولا حياة للكلمات بدون أفكار، وبأن اللغة هي أساس الفكر، وأنها طريق الإنسان إلى إدراك الحياة ومعرفة الحقيقة.
- 7- لا فرق كبيراً بين الفطرية والشمول من جهة وبين الكفاية والأداء من جهة أخرى، وهذان المفهومان سبق بهما الجرجاني تشومسكي بثمانية قرون.

المصادر :

- ابن منظور، محمد بن مكرم (1988). لسان العرب، طبع دار المعارف.
- أبو موسى، محمد (1998). مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني، القاهرة، مكتبة وهبة، ط1.
- أحمد بدوي، أحمد (د.ت). عبد القاهر الجرجاني و جهوده في البلاغة العربية، المؤسسة المصرية العامة للتأليف و الترجمة و الطباعة و النشر، ط2.
- الباقلائي، أبوبكر بن الطيب (1981). إعجاز القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، مصر، دار المعارف، ط5.
- بحيري، سعيد (1997). دراسة لغوية تطبيقية (في العلاقة بين البنية والدلالة) ، القاهرة، زهراء الشرق.

- البدراوي، زهران(1974). عبدالقاهر الجرجاني لغوياً، القاهرة ، (رسالة ماجستير).
- جاحظ، (د.ت). البيان والتبيين، تحقيق عبدالسلام هارون، ط دار الجبل.
- جاكسون، رومان(1988). قضايا الشعرية، ترجمة محمد الولي ومبارك حنون، دار توبقال للنشر.
- الجرجاني، عبدالقاهر(1984). دلالات الإعجاز، قرأه وعلق عليه محمود شاكر، القاهرة، مكتبة الخانجي.
- حماسة، محمد(1983). النحو والدلالة مدخل إلى دراسة المعنى النحوي، ط1.
- الحموي، ياقوت (1993). معجم الأدباء، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط1.
- الخطابي، محمد بن محمد(1976). بيان في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز، تحقيق خلف الله وسلام، مصر، دار المعارف.
- سلام، محمد زغلول(1952). أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر قرن الرابع الهجري ، مصر، دار المعارف ، ط3.
- الصعيد، عبد المتعال (1947). النحو الجديد، دار الفكر العربي.
- غريب علام، عبدالعاطي (1997). دراسات في البلاغة العربية، منشورات جامعة قان يونس، ط1.
- الفيروز ابادي، محمد بن يعقوب (1987). القاموس المحيط ، نشر مؤسسة الرسالة ، ط2.
- القاضي عبدالجبار بن أحمد الهمداني(1960). في أبواب التوحيد و العدل، تحقيق أمين الخولي، مصر: وزارة الثقافة و الإرشاد القومي، دار الكتب.
- لاشين، عبدالفتاح(د.ت). الخصومات البلاغية و النقدية في صنعة أبي تمام، طبعة دار المعارف.
- محمد مراد، وليد(1983). نظرية النظم وقيمتها في الدراسات اللغوية، دمشق، دار الفكر.
- مختار عمر، أحمد(1982). علم الدلالة، دار العروبة، الكويت.
- مطلوب، أحمد(1973). عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده، الكويت، وكالة المطبوعات، ط1.

